

صفاء النفس



«إنَّ صفاء النفس وشفافيَّتها يشكِّلان أهمَّ عنصرين للإحلام المريحة الصادقة، ولكنَّ الناس تتلوَّث نفوسهم - عادةً - باجتراح المعاصي، واتباع سبل الغي، والجنوح للحرام، والميل للهوى.. فتشوب نفوسهم شوائب وأكدار مما يمتنع معها تلقي الإلهام من الله تعالى. من هنا، فإنَّنا بحاجة إلى تربية دائمة للنفس، وترويض لها على الخير، لتكون مؤهلة لاستقبال بشارته، وإلهام السماء.

وتطهير النفس لا يتأتَّى إلا باجتنب الشهوات، والملاذات الممنوعة، والذنوب المهلكة.. فمن الذنوب ما يقف حاجزاً دون الالتقاء بروح السماء ويغلق أبواب الفهم على الإنسان (كَلا بَلْ رَانَ عَمَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (المطففين/ 14).

لذا وجب علينا - عقلاً وشرعاً - أن نكابد بشدَّة، لعزل أنفسنا عن الشر، بعد أن أحطنا به، من كلِّ حذب وصوب، وأن نقلع عن ممارسة الفعل القبيح، والقول القبيح، اللذين ينهي عنهما الدين، كالكذب والغيبة، والحدق على الناس، والإفتراء والخوض في الباطل، والمكر... وما إلى ذلك، فقد اتَّجه العالم بنا - في هذا الزمن - إلى خواء في الأخلاق والقيم والمثل...

إنَّنا بحاجة للنفس الصقيلة، النقية، أكثر من حاجتنا للحلم الصادق، أما لو كانت النفس محمَّلة بأثقال الآثام، محجوبة بكدر الذنوب، فلا تنفعها الأحلام في شيء.

والنفس الشفافة تؤدي دوراً كبيراً في حياة الإنسان، في نومه ويقظته، وإذا كان للنفس هذا الأثر الفعَّال في تصوير الحقائق، وتجسيد الوقائع للإنسان في حال نومه، من خلال الرؤى الصادقة، فالأجدر والأولى أن يكون لها أثر في تبيان الحقائق في حال اليقظة..

وهي كذلك بالفعل.. فالنفس البشرية تمتلك قدرة عجيبة على اكتشاف الحقائق، ورؤية المستور، وإدراك ما لا تدركه الأعضاء والجوارح.. ولكن تختلف نفوس الناس من شخص لآخر، باختلاف درجة صفاء نفوسهم وطهارتها، فمن كانت نفسه أكثر نقاءً وصفاءً كان أبعد وأعمق نظراً، وأقوى على استكشاف الحقيقة..

بخلاف من ضَعُفَت نفسه، وهانت، وتدنت في الموبقات.. فهو يكون أضعف بصيرةً، بل فاقداً للبصيرة، ومعدوم الرؤية، تكتنف الظلمات قلبه.

قال تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) (النور/ 40).

إنَّه نور النفس الذي يستطيع أن يرى به ما لا تراه العين، يستطيع أن يميّز بين الخير والشر، والصحيح والسقيم، والحقّ والباطل.

ويقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَذَقُّوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا...) (الأنفال/ 29).

إنَّ هذه الشفافية في النفس، يصطلح عليها العلم الحديث بـ(العقل الباطن) أو (الحاسة السادسة) لأنَّ هناك إرشاداً وتوجيهاً ذاتياً تقوم بهما النفس، للتعريف على مواطن الصحة والسلامة، أو مواطن السوء والانحراف.. وتقوم النفس بعملية قراءة ما بين السطور.

أما في نصوص الدين الحنيف، فيعبّر عنها بتعابير مختلفة، منها: (الفرقان) كما سبق في الآية الكريمة، والفرقان هو المرشد الباطني الذي ينير الدرب في ظلمات هذه الحياة.

يشرح الطبرسي نوراً في ضريحه، كلمة الفرقان بهذا الشكل (يجعل لكم هداية ونوراً في قلوبكم تفرّقون بها بين الحقّ والباطل).

ومنها: بعد النظر، كما ورد في وصف ضرار بن ضمرة لعليّ أمير المؤمنين (ع) (كان واٍ بعيد المدى...) فلا يملك بعد النظر إلاّ مَنْ يملك نفساً شفافة لينظر بعيداً ويكتشف المستقبل بنظرته الثاقبة، كما كانت الحال في أصدق صورها مع الرسول وأهل بيته الكرام.

وربما عبّر عنها بكلمة (النور) لأنَّ الإنسان تمتنع عليه الرؤية والحركة في الظلمة (ظلمة الحياة) إلاّ بنور من الواٍ عزّ وجلّ.

قال سبحانه: (أَوَلَمْ يَكُنْ مَیْتًا فَاُحْيَیْهِنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا یَمْشِی بِهِ فِی النَّاسِ کَذَٰلِكَ مَثَلُهُ فِی الظُّلُمَاتِ لَیْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا...) (الأنعام/ 122).

والمراد بالمیت هنا (الكافر) الجاحد لآیات الواٍ، والمعرض عن الدين، مثله مثل المیت لا ینفع أحداً ولا ینتفع منه أحد، وإن كان حاملاً لكفاءات عالية، وقدرات واسعة كما لو كان - مثلاً - عالماً غزير العلم، وعظيماً في أعین الناس، إلاّ أنَّهُ یبقى عاجزاً في نفسه من استکشاف الطريق الصحيح، وهو بالتالي ضالّ يعيش ظلمة الكفر والضلالة. بخلاف المؤمن الذي یحمل نفساً بصيرة، ذات رؤية بعيدة وواضحة، عميقة وكاشفة.

قال تعالى: (اللَّهُ وَلِیُّ الَّذِینَ آمَنُوا یُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (البقرة/ 257).

وقال: (قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الْأَعْمَى وَالْبَصِیرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِی الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) (الرعد/ 16). ▶

المصدر: کتاب رحلة إلى أعماق النفس